العصبية في تفكير ابن خلدون السياسي

Tribalisme In Ibn khaldoun s politicalthin Kings

السعيد بن عزه طالب دكتوراه علم اجتماع التربية
Said benazza PhD student sociologie of éducation
جامعة الوادي / الجزائر
University eloued
بوبكر معيفي طالب دكتوراه علم اجتماع التربية
Maifi boubakeur PhD student sociologie of éducation
جامعة الوادي / الجزائر
University eloued

تاريخ الإرسال:2019/11/18 تاريخ القبول: 2020/11/22

ملخص:

يهدف هذا المقال الى تسليط الضوء على موضوع العصبية في فكر بن خلدون السياسي بعنوان نظرية العصبية في الفكر السياسي الخلدوني وهو ما يتطلب منا في هذه الدراسة الحالية التعرض الى مختلف المفاهيم الأساسية التي تشكل موضوع هذه الدراسة من خلال التطرق الى حياة بن خلدون وضبط مفهوم العصبية مرورا بعوامل تكوين العصبية ثم ابراز مراحلها ودورها ثم تحديد العلاقة بين العصبية والدعوة الدينية ثم تحديد اطوار الدولة العصبية حتى يتسنى لنا ضبط العلاقة بين العصبية والملك من جهة والعلاقة بين العصبية والخلافة من جهة أخرى كما بينا اهم الاعتراضات التي وجهت لابن خلدون ويختتم المقال في النهاية بأهم النتائج المتوصل اليها .

الكلمات المفتاحية:

العصبية – البداوة – الحضارة – الملك – الخلافة .

Abstract:

This article aims to shed light on the topic of tribalism in ibn khaldouns political thought entitled the theory of tribalism in khalduni political thought , which requires us this current study to address the various basic concebts that from the subject of this study by addressing the life of ibn khaldoun and controlling the concept of tribalism through the factors establishing the neurogenesis , then highlighting its stages and role , then determining the relationship between nervousness and religious advocacy , then determining the stages of the nervous state , so that we can control the relationship between the nerve and the king on the one hand , and the relationship between neurosis and succession on the other hand Reached

key words:

Tribalism – Bedouinism – civilization – reign – Caliphate .

1–مقدّمة :

يعد بن خلدون مؤسسا لعلم العمران بدون منازع حيث فصل وتكلم على جل القضايا والظواهر الاجتماعية في جميع المجالات التربوية والاقتصادية والتاريخية والسياسية وعرض ذلك في كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " المعروف بالمقدمة , حيث يتألف هذا الكتاب من 7مجلدات ضخمة , حيث عرض في كل مجلد مسالة من المسائل الاجتماعية ويضم كل مجلد فصول وابواب ناقش فيها قضية جزئية ومن بين القضايا ,قضية وفكرة العصبية التي تندرج ضمن مجال الفكر السياسي عند بن خلدون والتي تدخل ضمن اهتمامات علم الاجتماع السياسي ولعل اهتمامه بهذه المسالة السياسية هو تتبعه لتاريخ الأمم والدول ومختلف الأديان عبر العصور حيث تكلم عن تاريخ العرب في المجلد الثاني بكل تفصيل كما خصص المجلد الثالث للأمويين والعباسيين كما خصص المجلد الرابع بدولة العلويين والمجلد الخامس تطرق فيه لتاريخ الإسلام والمجلد السادس تناول فيه تاريخ المغرب العربي , حيث رحلاته تشهد على ذلك من خلال تقلد العديد من المناصب السياسية وكانت له نظرة فاحصة على العلاقات الاجتماعية بين الافراد من جهة وطبيعة الأنظمة السياسية وتكوين الدولة العصبية من جهة أخرى لذلك فموضوعنا يدور حول إشكالية واسعة تحددها الإجابة عن التساؤلات الاتية :

ماهو موقف بن خلدون من العصبية ودورها في قيام الدول ؟ وما اثرها في حتمية سقوط هذه الأخيرة ؟ وما علاقتها بالأنظمة السياسية السائدة في الدول ؟.

2–حياة بن خلدون :

يعتبر بن خلدون من العلماء المسلمين الاقدمين الذين كتبوا عن حياتهم ترجمة وافية , استعرضوا فيها مراحل حياتهم بدقة وتفصيل ووفروا بذلك جهدا كبيرا لمن يريد ان يكتب عنهم فيما بعد , ينتمي افراد اسرة بن خلدون الى جدهم خالد بن عثمان الملقب بخلدون تصغيرا لاسم خالد , وسميت اسرته ببني خلدون ولكن في هذه المرحلة لم يكن لأسرته صيت وسمعة خاصة .1

وكان خالد بن عثمان المعروف بخلدون الذي دخل الاندلس مع الفتح الاسلامي سنة 92هـ واستقر هو واسرته في قرمونة , ثم في اشبيلية , وحدث ذلك ان انتقلت الاسرة الى تونس حيث تولى محمد جد بن خلدون الوزارة لدى ابي حفص وفي الوقت نفسه كان والد بن خلدون ميالا الى الميدان العلمي ,كما اهتم بالشؤون الادارية والعسكرية واشتهر بالعلم , ومع ظهور داء الطعون في هذا العصر , ادى الى وفاة خلدون عام 1349م مخلفا وراءه ابنه عبد الرحمن الذي هو محل الدراسة الحالية , فهو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون ولد في تونس غرة رمضان سنة 1332م وفيها درس العربية والقران والفقه والحديث ,

ودرس العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية.2

ولقد كان بن خلدون كثير الترحال , فقد رحل الى فاس والاندلس ومصر والجزائر , فأول رحلاته كانت الى فاس سنة 755هـ وكان سببها النزاع الذي حدث بين امير قسنطينة وسلطان تونس الذي كان فيلسوفا في بلاده , ففر بن خلدون الى المغرب ناجيا بنفسه ثم استقدمه السلطان ابو عنان المريني صاحب تلمسان الى فاس عام 756هـ وقربه واستكتبه وكان احترف بصناعة الكتابة فحسده اقرانه وسعوا فيه بتهمة المؤامرة فاعتقله , وبقي معتقلا حتى مات السلطان عام 759هـ فاطلقه الوزير بن عمر وخلع عليه واحتفظ به ثم رحل بعد ذلك الى ملوك بني الاحمر بالأندلس سنة 764 هـ وقبل وصوله الى غرناطة بالأندلس كان الاحمر ووزيره بن الخطيب يخبرهما بقدومه الى الاندلس في مهمة رسمية فيقول " وقد اهتز السلطان بقدومي وهيا لي المنزل من قصوره بفرشه ثم ضمني في علية اهل مجلسه " . 3

اما اخر رحلة فكان تفكيره نحو الشرق ليؤدي فريضة الحج وفي نفس الوقت ليبتعد عن السياسة وهمومها , لكن وجهة السفر تغيرت نحو القاهرة ويقول عنها " فانتقلت الى القاهرة فرأيت حاضرة الدنيا ولما دخلتها اقمت اياما وانهال علي طلبة العلم بها يلتمسون الافادة مع قلة البضاعة ولم يوسعن عذر فجلست للتدريس بالجامع الازهر " 4

بعد ذلك واصل طريقه الى مكة وكان ذلك سنة 789هـ ليعود في السنة الموالية الى القاهرة ليستقر فيها مدرسا ومؤلفا ومتوليا للقضاء عام 1399م وضل على هذه الوظائف الى ان انتقل الى رحمة الله تعالى في 25 غرة رمضان 808هـ 1406م.

فحياة بن خلدون اذا كانت مفعمة بالنشاط في ميادين مختلفة وقد كان هو في حد ذاته رجلا مغامرا يتجلى ذلك من خلال الصبر والارادة التي كان يتمتع بها جراء ما لحقه من الظروف والقاسية والجو الاجتماعي المشحون بالمكائد , لكنه استطاع ان يحمل مشعل النور والعرفان ويسير وفق خط مستقيم رسمه لنفسه , وهذا ما تؤكده الاثار التي تحرك الباحث والمؤرخ والفيلسوف رغم انها لا توجد كاملة بين ايدينا وكانت ثروة علمية اثرت المكتبات العربية والغربية وكانت مصادر غنية لأي باحث قصدها وهي :

–كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر: وهذا الكتاب يتألف من سبعة مجلدات ضخمة وكل مجلد يحتوي على 1300 صفحة بالنسبة للطبعة اللبنانية .

–كتاب التعريف بابن خلدون : هذا الكتاب خاص بحياته ويعتبر اول كتاب في الميدان العلمي يقوم فيه المؤلف بتدوين حياته بنفسه بالتفصيل صدر هذا الكتاب عن دار الكتاب اللبناني يحتوي 430 صفحة من الحجم المتوسط .

-كتاب شفاء السائل وتهذيب المسائل : وهو كتاب خاص بالكلام عن التصوف ويحتوي على ستة فصول ويتألف من 93 صفحة .

- كتاب وصف المغرب العربي : وهو كتاب يتضمن من الناحية الجغرافية والاحوال الاجتماعية على اثني عشر كراسة كتبه الى تيمور لنك قصد منه الاطلاع على المغرب العربي .

ويمكن ان نقول ان بن خلدون الف كتابا قيما في الحساب وشرح البردة ولخص كثير من كتب بن رشد كاملة , رسائل عديدة مع الملوك ورجال الفكر وخطب قيمة وقصائد شعرية رائعة.5

3-مفهوم العصبية :

اذا اردنا عرض مفهوم العصبية نجده مفهوما مفصليا في الفكر السياسي الخلدوني يصعب تحديده بوجه خاص وان بن خلدون لم يكن اول من استعمل مصطلح العصبية حيث يرجع الى ما حقبة ما قبل الإسلام .6

وبعد ظهور الإسلام ادان القران بشدة العصبية ومظاهرها السيئة ودعا المسلمين الى التخلص من هذا التحيز الطائفي والقبلي المتخلف .

اما مفهوم العصبية فقد ترجم الى معان مختلفة :

فهو يعني روح التكاتف الذي يظهر بين افراد القبيلة او الطائفة الواحدة حسب ليون غوتييه .

وهو روح التكاتف الذي يظهر بين الأشخاص المنتسبين الى المهنة الواحدة حسب ديسلان .

وقد تعني العصبية التماسك والولاء للجماعة .

اما ابن خلدون فيتخذ رابطة العصبية موضوعا لدراسة شاملة وعملية , فنجده يتكلم أولا عن مصدر العصبية والذي يرجعه الى الطبيعة البشرية والى اثر القرابة في الحياة الاجتماعية فيقول " ان صلة الرحم طبيعي في البشر الا في الأقل ومن صلتها النعرة على ذوي القربى والارحام ان ينالهم ضيم او تصيبهم هلكة " .7

فلاحظ بن خلدون وجود علاقة بين العصبية وبين العمران البدائي حيث تنبثق من البداوة ثلاث أنواع من العلاقات هي : صلات الرحم , الحلف , الولاء .

فعصبية الدم من منشأها طبيعي في الانسان فالطبيعة تفرض عليه العطف على اقربائه والمدافعة عنهم. امالعصبية التي مصدرها الحلف والولاء فسببها يقول ابن خلدون الانفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها او قريبها او نسيبها .8

ويختلف النمط الأول من العصبية صلة الدم عن النمطين الاخرين عصبية الحلف والولاء فهما ثمرة الحاق افراد منحدرين من اصل معين بجماعة من اصل اخروذلك من خلال عدة روابط كبسط الحماية وغيرها ,ومن هنا يظهر ان العصبية ليست خاصة بالقرابة الدموية بل تتعدى الى الحلف والولاء , ويرى ابن

خلدون بان علاقة النسب بالعصبية امر ليس حقيقي حيث يقول " بان النسب امر وهمي لا حقيقة له " .9

ويرى ان الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم باخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم فيقول " مازالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم باخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم " .10

وللنسب تأثير طبيعي في الالتحام بين البشر نظرا للصحبة والعشرة والمدافعة وينتج عن نسب الولاء والحلف عصبية وتولد منها نعرة ولحمة وذلك على الرغم من عدم وجود القرابة وبهذا يتضح لنا ان العصبية تتولد من القرابة , كما انها تستند الى وحدة النسب يضاف الى ذلك الالتحام المتولد من وحدة النسب الخاص يكون اقوى من الالتحام المتأتي من وحدة النسب العام وهكذا يكون دور هام في المجتمع السياسي .

ويقول الدكتور طه حسين " ان التاريخ العربي لم يذكر قط شعب يفوق الشعب العربي في الاستمساك بعصبيته وتقديم صلة الرحم على ما سواها من الصلات واذا استثنينا الأربعين عاما الأولى من تاريخ الإسلام فان تاريخ الامة العربية قبل الإسلام وبعده ليس الا سلسلة طويلة من الخصومات بين القبائل وهي خصومات منشئها الحقيقي تلك العصبية التي دفعت الى حد التعصب .11

وصلة الرحم تتعدى العرقية نفسها فالالتحام المقصود منه العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحبة , فالعصبية مصدرها الحقيقي هو المساواة في حياة الفقر والمساواة في الشعور والحياة ,وقد تتعدى العصبية الحلف والولاء فتكون نتيجة العشرة والصحبة او الرضاعة والامثلة في تاريخ العرب كثيرة , فالخوارج كمذهب او كنزعة دينية التي اخذت ابعادا سياسية كان اتباعها عربا ولكن من مبادئهم الأساسية الا تقتصر الخلافة على العرب بل تتعدى الى أي مسلم اظهر الكفاءة والصلاحية , في حين نجد الشيعة تكونت من قبائل غير عربية في بداية الامر ولكنها تطالب بالخلافة لأهل البيت أي لقريش ولأبناء علي بالخصوص .12

و هكذا فان بن خلدون ابتدع نظرية العصبية التي تعد بمثابة المحور الذي يدور حوله معظم المباحث الاجتماعية , وتتصل به جميع مباحث علم الاجتماع السياسي ولا نغالي اذا قلنا انها تؤلف انظومة تامة التكوين في الاجتماع بوجه عام , والاجتماع السياسي بوجه خاص , وعلى هذا الأساس فان بن خلدون ينظر الى ظاهرة العصبية كظاهرة في الطبيعة وكقوة في المجتمع في ان واحد 13.

4–عوامل تكوين العصبية :

تكلم بن خلدون عن مصدر العصبية ويردها الى الطبيعة البشرية والى اثر القرابة في الحياة الاجتماعية , فالظروف التي يعيشها الانسان خاصة البداوة اين يكثر

الفقر وشغف العيش والدفاع عن النفس هي التي دفعتهم الى التكاتف والالتحام وبهذا فالعصبية تتولد من القرابة , كما انها تستند الى وحدة النسب يضاف الى ذلك الالتحام المتولد من وحدة النسب العام وهذا يكون له دور هام في المجتمع السياسي حيث وضح بن خلدون هذا في قوله " والنعرة تقع من اهل نسبهم المخصوص ومن اهل النسب العام الا انها في النسب الخاص اشد لقرب اللحمة "

فالظلم الذي يراه القريب حصل لقريبه او العداء له ,يولد في نفسه غضاضة من ظلمه فهي نزعة طبيعية في البشر منذ وجودهم وهي التي تؤدي الى الاتحاد والالتحام بين افراد النسب الواحد يشتركون في حمل الديات ويتعاونون على دفع العدوان .

وهكذا يتبين ان العصبية تتولد من القرابة وهي تستند الى وحدة النسب فنشأة العصبية او عوامل تكوينها ترجع الى الالتحام والترابط من جهة والظروف الاجتماعية الصعبة كالفقر والسكن الفوضوي عند اهل البادية من جهة اخرى.

5–مراحل العصبية:

لقد فرق بن خلدون بين نوعين من العمران هما: البدوي والحضري , وقد ارجع الاختلاف بينهما الى الأساس المعيشي الذي يمكن ان نسميه بالأساس الاقتصادي حسب المفهوم الحديث له ويقول : اعلم ان الاختلاف الأجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم في المعاش.14

وان كان بن خلدون قد ميز بين نوعين من العمران , فان ذلك لا يدل على تناقض بل على حركة تكاملية بينهما , تنتهي في الأخير الى بلورة أساس تحضيري كانت البداوة مرحلته الأولى .

ولذلك فمن الضروري تتبع مراحل العصبية من خلال التأثيرات المتبادلة بين العمران والعصبية ولما كان العمران البدوي اسبق زمنيا من العمران الحضري , ويمكن تحديد مراحل العصبية كالاتي :

5-1-**المرحلة الأولى** : تكون فيها العصبية كقوة طبيعية لا ينتبه الفرد لوجودها لكنها تظهر تلقائيا في افعاله لما يقوم به من تعاون ودفاع ونعرة من افراد القبيلة وتكون هذه المرحلة من العصبية في المجتمع البدوي , حيث اكد بن خلدون على وجود علاقة بين البداوة من جانب وبين هيكل ودور العصبية من جانب اخر , وهذا نظرا لما تتطلبه الحياة البدوية القاسية للدفاع ضد أي هجوم من الجماعات المعادية وذلك لعدم وجود من يحميهم , تبقى فقط الشجاعة واعتمادهم الكامل على انفسهم " فالعصبية في العمران البدوي يقوم بنفس الدور الذي تقوم به الاسوار والجند في العمران الحضري أي انها قوة للمواجهة " .15

فالعصبية التي تتولد عن البادية تكون قوية وذلك لان الحياة البدوية تتضمن شيئا من الاعتزال فهم دائما

جاهزون للدفاع عن انفسهم وكيانهم وتحقيق شروط امنهم بما يكفل تكامل الأساس المعاشي القائمين عليه ,فهي ظاهرة تستلزمها المعطيات الاجتماعية والاقتصادية السائدة في هذا النوع من العمران .

5-2-**المرحلة الثانية** : تغيرت الأوضاع في ظل الحياة الحضرية ولذلك اختلفت عن الحياة البدوية وذلك راجع لعدة ظروف منها ,ان الدفاع في المدينة مختلف عنه في البادية حيث تكثر اسوار الحماية والحرس , كما توضع إجراءات حكومية جديدة لتحل محل سلطة الزعماء القبليين , وذلك لان اهل الحضر يوكلون امرهم في المدافعة عن أموالهم وانفسهم الى الحاكم الذي يسوسهم والحماية التي تولت حراستهم .

كما تستمر مشاعر وروابط العصبية رغم ان دورها يفقد وجوده في هذه المرحلة باعتبار ان دورها اول عنصر يتأثربالتغير حيث تقل قيمتها فتكون العصبية ضعيفة نتيجة ما يعرفه

نظام الحكم كم استبداد للرعية وترف في الأموال ,وهكذا حدث تغير جذري من المرحلة الأولى الى الثانية ,فمن الاستنفار الى الاستقرار ومن البيداء والفقر الى المنزل والقصر فتغيرت بذلك التركيبة النفسية الاجتماعية وحدث معها تغير في تأمل العصبية التي كانت لهم .

5-3-**المرحلة الثالثة** : فتزول تلك العصبية تماما نتيجة تخلي الملك على عصبيته الاصلية واستبدالها بعصبية جديدة بعيدة عن نسبه الحقيقي كذلك ان فساد العصبية بحصول الترف والنعيم للقبيلة وهذا بفضل حصول القبيلة على مستوى احسن من العيش يبرز فيها مصالح شخصية متناقضة فالتحول الذي يمس العصبية يؤدي بها حتما الى الاضمحلال لذا يمكن القول ان العصبية هي قوة الدولة والنسب وحدتها .

6-دور العصبية :

اكد بن خلدون على الحاجةالماسة للعصبية من اجل اقامة السلطة سواء داخل جماعة معينة او في المجتمع ككل , وذلك انطلاقا من نظرته الى دور العصبية كأصلح اداة يمكن الاعتماد عليها لفرض دعوة سياسية جديدة ,حيث يؤكد على الدور الحاسم الذي تلعبه العصبية في الحياة الاجتماعية والسياسية خاصة في البداوة لان الافراد هنا لا يزالون قادرين على التحرك سريعا ضد الجماعات الدخيلة وكلما كانت اكثر بدائية كانت اكثر اندفاعا , فهذه الروح والقدرة الكبيرة على الدفاع تفسر لنا ان اقامة السلطة الملكية يتحقق في هذه المرحلة باستخدام القوة " واذ تبين ذلك في السكنى التي تحتاج للمدافعة والحماية فبمثله يتبين لك في كل امر يحمل الناس عليه من نبوة او اقامة ملك او دعوة , اذ بلوغ الفرض من ذلك كله انما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من الاستعصاء ولا بد في القتال من العصبية " .16

كما ان العصبية اداة للتجميع تفرضه ضرورة الحماية والمدافعة عن النفس حتى يتطور التنظيم السياسي الذي يمكن ان يقاوم او يطالب ويمكن تصور ذلك الدور الذي تقوم به العصبية القبلية كقوة فاعلة في المجتمع من خلال قوة التلاحم وعمقه واتساعه حتى ان العصبية في العمران البدوي تقوم بنفس الدور الذي تقوم الاسوار والجند في العمران الحضري أي انها قوة للمواجهة , لا وازع للفصل بين المنازعات الشيء الذي يقوم به كبراء القبائل وشيوخها .

كما يؤكد بن خلدون حاجة السلطة السياسية الى العصبية في ان الرئاسة لا تكون الا بالتغلب والغلب انما يكون بالعصبية وكذلك في قوله " الملك انما يحصل بالتغلب والتغلب انما يكون بالعصبية "

فالغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك وذلك لان الدور الذي تلعبه العصبية هو الحماية والمدافعة والمطالبة , فيقول بن خلدون " ان العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر يجتمع عليه ".

7–علاقة العصبية بالدعوة الدينية :

يولي بن خلدون اهمية كبيرة للدعوة الدينية في تقويمه العصبية وتدعيم الالتحام لان الديانة تؤلف القلوب وتذهب بالتنافس والتحاسد وقد تكلم بن خلدون عن الدين من خلال زاوية محددة وهي ان الاجتماع الديني يضاعف قوة العصبية بالاستبصار والاستماتةفيقول بن خلدون :ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على العصبية التي كانت لها من عددها "

والنقطة الهامة التي ركز عليها بن خلدون هي اثر الدعوة الدينية في اضعاف روح التنافس والتخفيف من اسباب الخلاف , هذا لان الدين يصرف الاهتمام الى قضايا اسمى واعلى من مجرد الهدف المادي المتمثل في التطلع الى الشهرة والرياسة , فأشار بن خلدون في تفسيره لأثر الدين في تقوية العصبية بقوله " وسره ان القلوب اذا تداعت الى اهواء الميل الى الدنيا والباطل واقبلت على الله اتحدت وجهتها , فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة "

لذك فالتحاسد والاختلاف يؤديان الى ضعف التعاون والتلاحم بين الافراد وبالتالي تضعف العصبية وتصبح عبارة عن عصبيات متنافرة ضعيفة متنافسة وكل واحد منها يسعى لمحاربة الاخر والاطاحة به , همهم الوحيد السيطرة على الرياسة والحكم . وللدعوة الدينية الدور التربوي والاخلاقي في النفوس وتحدث الامام الغزالي " في كتابه احياء علوم الدين عن التربية النفسية واهميتها في سيطرة الانسان على نفسه , كما وجدنا هناك نوع من التشابه الذي اظهره بن خلدون بين تأثير الدين وتأثير العصبية في الحياة الاجتماعية , فالعصبية هي كذلك لها تأثير على الدعوة الدينية بل ان الدعوة الدينية نفسها هي الاخرى تعتمد على العصبية حيث يقول " ان الدعوة الدينية بلا عصبية لا تتم " ويعلل

ذلك بان كل امر تحمل عليه الكافة فلا بد له من عصبية ويستشهد بدعوة المهدي والمرابطين ولذلك لوجود نصير وهم قبائل لمتونه وبذلك استطاعوا نشر الدعوة في المغرب .17

واكد بن خلدون دور العصبية الى حد ان قدمها على الدين حتى ان بلوغ الدعوة الدينية يخضع للعصبية .18

وهذا ما يؤكده التكرار الدائم عند بن خلدون لشرح الحديث النبوي الشريف الذي يقول " ما بعث اليه نبيا الا في منعة من قومه " وهذا ما أدى بابن خلدون الى القول بان أي دعوة لا تعتمد على العصبية ستفشل وتنقرض ولا تتم ويستشهد هنا بأمثلة تاريخية وذلك من فتنة طاهر في بغداد أيام الأمين والمأمون الى خروج التوبذري في سوس ودعوة العباس في الغمارة .19

فارجع بن خلدون عدم نجاح دعوة هؤلاء الدعاة لعدم معرفتهم ما تحتاج اليه هذه الدعوات من العصبية .

فاذا كان للعصبية دور في بناء قوة الدولة واستمرارها فهي بمثابة القوة والدافع الديناميكي للمجتمع , فكذلك الدين له اثر كبير في تقوية الدولة بما يؤدي اليه من استئصال للتطلعات الشريرة ومشاعر الغيرة المتبادلة وخلق مشاعر التضامن وتحقيق وحدة الصف , ويوضح بن خلدون ان الدين له دور أيضا في اضعاف قوة السياسة الى جانب القوة التي تولدها العصبية كما ان الاجتماع الديني يضاعف قوة العصبية ويؤكد موقفه هذا من خلال الأدلة التي يضعها وكانت قد حدثت عبر التاريخ فيذكر على الأخص ما وقع للعرب في صدر الإسلام بالقادسية واليرموك حيث غلبت جيوش المسلمين جموع فارس كانت نحو 120 الفا بالقادسية وجموع هرقل كانت على ما قاله الواقدي 400 الف باليرموك , كما توضح لنا خطبة الخليفة عمر .20 كيف استطاع ان يستثير الحمية الدينية ليدفع العرب الى فتح العالم والتي رواها بن خلدون .

فالعصبية أصبحت بفضل الدين جامعة وذلك بعدما تخلى أصحابها عن تلك الصراعات والحروب المفرقة للوحدة والكيان العربي خاصة وبالتالي اتجهوا الى فتح البلدان وإقامة البلدان العربية الكبرى .

وهكذا فالدين نجح في نقل العصبية من اطار ضيق أي من التعصب للنسب الخاص الى اطار واسع يتجلى في الدفاع عن العقيدة الدينية ومبادئ الدين الحنيف .

8–اطوار الدولة العصبية :

ارجع بن خلدون اصلنشأة الدولة الى طبيعة الحياة الاجتماعية التي تفرض وجود هيئة تقود وتنظم حياة الانسان فالدولة والمجتمع متلازمان تلازم المادة والصورة .21

وهذا التلازم يعني او يقصد به وجود احد العنصرين حتى يكون الاخر , وقد ربط بن خلدون الدولة بالعصبية رباطا وثيقا لان نشأة الدولة يكون نتيجة القوة والتغلب القائم على العصبية المتوالدة عن وحدة النسب وقوة

القرابة والولاء لذا فالدولة عند بن خلدون هي الامتداد المكاني والزماني لحكم عصبية ما .

ذهب بن خلدون الى ان الدولة تمر بخمسة اطوار حيث بين ذلك في قوله " اعلم ان الدولة تنتقل في اطوار مختلفة وحالات متجددة ويكسب القائمون بها في كل طور خلقا من احوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الاخر , لان الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة العصبية واطوارها لا تعدوا في الغالب خمسة اطوار خاصة وان كل شيء يرتبط بقوة العصبية , وتكون اطوارها كالاتي :

8-1-الطور الأول (طور الظفر بالبغية والاستيلاء على الملك) :

حيث يتم في هذا الطور تأسيس الدولة وهذا بانتزاع الملك من ايدي السلطة السابقة وهذا لايتم الا بقوة العصبية التي تدعم صاحب الدولة الجديدة في حكمه وتسانده في تسيير شؤون الدولة ويكون الحكم مشتركا بين الحاكم وعشيرته اذ يتعاون الحاكم مع الافراد لبناء وإعادة للدولة مجدها ويقول بن خلدون " طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من ايدي الدولة السابقة فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم بشيء لان ذلك مقتضى العصبية التي وقع بها الغالب وهي لم تزل بعد بحالتها.22

8-2-الطور الثاني (طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك) :

هذا الطور يختلف عند الدول وهذا لما يعرفه من ظلم واستبداد الحاكم على رعيته حيث صاحب الدولة في هذا الطور يكون متهما بتكوين من يحميه وهذا بخلق جيش من المرتزقة لحمايته ومعاونته على منافسيه .وعن هذا الطور يقول بن خلدون " ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع , والاستكثار من ذلك لجدع انوف اهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه "

8-3-الطور الثالث (طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك) :

وفي هذا الطور يعمل القائمون على الدولة على تحصيل ثمرات الملك معتمدين في هذا بجمع الأموال وبناء المصانع الضخمة والمباني الفخمة مع الاسراف والتبذير للأموال وصاحب الدولة في هذا الطور يعمل على اشباع باقي شهواته والحصول على ثمرات الملك كتحصيل المال وتخليد الاثار , فيوجه عنايته الى ضبط الدخل والخرج وتشييد المباني الضخمة مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في احوالهم بالمال والجاه 23 .

واعتبر بن خلدون هذا الطور هو اخر الاطوار استبدادا وهذا راجع الى ضعف دور العصبية وتضاؤل شأن القوة فيقول عنه " هو طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات

الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الاثار.

8-4-الطور الرابع (طور القنوع والمسالمة) :

حسب بن خلدون ما يميز هذا الطور هو انه تقليد اعمى للطور الذي سبقه وصاحب الدولة في هذا الطور يكون قانعا لما بنى اولوه من مجد وعلى هذا الأساس يتوقف البناء ويعم السكون على الدولة فالقائمون عليها لا يعملون الى زيادة وتوسعة الملك بل يكتفون بتقليد من سبقوهم فهم يرون الكمال في ما وجدوه من البناء ومجد احسن طريقة للمحافظة عليه هو التقليد فحسب "

وفي هذا الطور يقول بن خلدون " ويكون صاحب الدولة فيه قانعا بما بنى اولوه مسالما لأنظاره من الملوك والحكام مقلدا للماضين من سلفه , فيتبع اثارهم حذر النعل بالنعل ويقتفي طرقهم بأحسن منهاج الاقتداء , ويرى في الخروج عن تقليدهم فساد امره وانهم ابصر بما بنوا في مجده " .

لكن هذا التقليد الاعمى من مؤشرات الانهيار الذي سيصيب الدولة فيما بعد كما ان القوة تصبح عبئا على صاحب الدولة كما تشيع ظاهرة التقليد والمحاكاة وينعدم الابتكار والابداع داخل الدولة.24

8-5-الطور الخامس (طور الاسراف والتبذير) :

تكون حالة الدولة في هذا الطور منغمسة في الترف والتبذير والاسراف الفاحش ويحدث الضعف الكلي للدولة في هذا الطور وعن هذا الطور يقول بن خلدون " ويكون صاحب الدولة في هذا الطورمتلفا لما جمع اولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته والتقتير على جنده , واصطناع اخذان السوء وتقليدهم جليل الاعمال والولايات عن الوزارة والقيادة والجباية وكل أولئك مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها فساد العصبية التي كان بناء الغلب عليها ومرض قلوب اهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان وهكذا يكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون وهادما لما كانوا يبنون "

وهكذا يوضح بن خلدون ان العلامة الدالة على السقوط هي دخول الحكم واستقراره في أجواء الثروة والترف الذي يكون ظهوره بسرعة وبشدة ومفهوم الترف يقترن بمفهوم الفساد تحت قلم بن خلدون.25

وقد ربط بن خلدون ظاهرة الترف والهرم للدولة بما جاء في القران الكريم والسنة وهذا في قوله تعالى " واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم اهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا "

9-العصبية والملك :

يقول بن خلدون " الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك " وهنا يتضح ان الملك ناتج عن تطور العصبية

ونلاحظ ان بن خلدون قد فرق بين العصبية القبلية والعصبية الملكية باعتبار ان الاولى غاية للثانية ويتحكم الى جانب العصبية ظروف اخرى مذكورة انفا في عنصر انقلاب الرئاسة الى ملك .

كما ان للعصبية دورا هاما في ظهور الملك وكذلك لها دور كبير في انهياره وخاصة في حالة ضعف العصبية وفسادها , كما قال بن خلدون هي علاقة طبيعية وفقا لقوله " الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها باختيار وانما هو بضرورة الوجود وترتيبه "

واكد بن خلدون ام من منازع الملك ضعف العصبية واستدل في ذلك من تاريخ بني اسرائيل عندما دعاهم سيدنا موسى عليه السلام الى ملك الشام فقالوا له ان فيها قوما جبارين ولا نستطيع دخولها فاذهب انت وربك فقاتلا وذلك اقرار لأنفسهم بعدم قدرتهم لضعف عصبيتهم وعندما يكون القبيل تابع لسواه بسبب ضعف عصبيته فذلك مؤشرا لنهاية حكمه او ملكه.26

10–العصبية والخلافة :

تمثل الخلافة نظام سياسي شرعي ديني حسب بن خلدون حيث اعتبر ان الدعوة الدينية المدعمة بالعصبية تزيد من قوة الدولة ومتانتها , فالعصبية ضرورية في الدعوة الاسلامية فلا دعوة بدون عصبية في الدعوة الاسلامية فلا دعوة بدون عصبية ف ي نظره , ويستشهد بأمثلة من التاريخ الاسلامي فقد حدث في المغرب معركتين قبيلتين فكانت قبيلة الزناتة.27

ومن هنا نجد ان للعصبية دورا هاما في نصرة الدعوة الدينية في حين يجدر بنا ان نوضح ان الخلافة يمكن ان تنقلب الى ملك اذا خالف الخليفة الشريعة واستجاب الى طبيعة الانسان الانانية التواقة الى حب التسلط والتملك وينفرد الحاكم بالحكم باسطا نفوذه مخالفا بذلك اسس الخلافة ومبادئها فتنقلب من خلافة مبنية على الشورى ملك قائم على الاستبداد والطغيان المؤديان الى ضعف وانهيار الدول وهذا ما حدث للدولة العباسية والعثمانية كذلك وغيرها من الدول الاسلامية عندما حاد ملوكها عن المبادئ الاسلامية عندما حاد ملوكها عن المبادئ الاسلامية وسخروا الملك لأغراضهم الشخصية وتناسوا ما كان عليه اسلافهم من خصال حميدة واهداف نبيلة , فانغمسوا في الملذات واصيبوا بالانحلال والضعف فكانت لعدوهم فرصة سانحة لانتزاع السلطة من ايديهم مما ادى الى تلاشي عصبتهم ومنه انقسام العالم الاسلامي وتحوله الى مسرح للاضطرابات والفتن والفوضى وقد جاء بهذا بن خلدون بقوله للمسعودي يستشهد به " فكانت همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاص ....فسلبهم الله العزة والذل ونفى عنه النعمة " .28

11–الاعتراضات التي وجهت الى بن خلدون :

لكن ما اخذ على بن خلدون في اطار دراسته للعصبية واهميتها في تأسيس الدولة انه قد بالغ في التركيز عليها خاصة في الفكرة التي تقول الدعوة الدينية بلا عصبية لا تتم وهذا الامر كذبه التاريخ اذ اغلب

الدعوات الدينية تمت بلا عصبية , فالعصبية لم تنفع احدا من الانبياء ابتداء من ابراهيم عليه السلام ومرورا بنوح وهود وصالح ولوط وموسى ....وانتهاء بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام , فالدعوات الدينية لا تتم بالعصبية وانما كان وصولها بالتأييد السماوي والمعجزات ثم المؤمنين بعد ذلك .

وكمثال رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجدت معارضة من قبل قومه وهم اهل عصبيته لكن مع هذه المعارضة نجحت الدعوة الدينية بفضل القران الكريم وما يحتويه من آيات اثرت في النفوس , ولشخصية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التي جلبت الكثير من الانصار له , فالعصبية اذا لم يكن لها دور في النجاح حتى في الرسالات الاخرى وكل الانبياء والرسل وجدوا معارضة من طرف قومهم واهلهم .

12.الخاتمة:

يمكن التوصل الى مجموعة من النتائج من خلال دراسة هذه النظرية في الفكر السياسي الخلدوني ومن أهمها :

-للعصبية عند بن خلدون دور فعال في قيام الدولة حيث جعلها أساس بناء الدولة وسبب في انهيارها حيث تحتل هذه النظرية مكانة هامة في نظريته .

-يؤمن بن خلدون ان الدولة تنشا بفعل العصبية وتمر بخمسة اطوار ثم تضمحل وتنهار .

-العصبية تنقلب في ثلاث أجيال مدى كل جيل 40سنة وبذلك يصبح عمر الدولة 120 سنة .

-رحلات بن خلدون شرقا وغربا مكنته من وضع العديد من النظريات منها نظرية العصبية .

-نظريات بن خلدون على العموم والسياسية بالخصوص أصبحت مصدرا للكثير من علماء الغرب لتقديم دراساتهم وبحوثهم .

13.المصادر والمراجع:

1.البير نصري نادر,مقدمة لكتاب بن خلدون , دار المشرق ,بيروت ,لبنان , 1952, ص 11 .

2.يوحنا قصير, فلاسفة العرب , بن خلدون , دار المشرق , بيروت , لبنان , 1952 , ص 6

3.عبد الرحمن ابن خلدون,المقدمة ,دار القلم ,ط5 ,بيروت , لبنان , 1984 , ص421.

4.نفس المرجع , ص 425.

5.ادريس خضير, التفكير الاجتماعي الخلدوني وعلاقته ببعض النظريات الخلدونية , ديوان المطبوعات الجامعية ,بن عكنون , الجزائر ,1992 , ص 33.

6.محمد محمود ربيع,النظرية السياسية لابن خلدون ,دار الهناء للطباعة ,مصر, 1971 , ص 72.

7.عبد الرحمن بن خلدون , مرجع سابق , ص 128.

8.نفس المرجع , ص129.

9.نفس المرجع , ص 129

10.نفس المرجع , ص 130

11. طه حسين,فلسفة بن خلدون الاجتماعية ,ترجمة محمد عبد الله عنان ,مطبعة الاعتماد ,مصر , 1953 , ص 86.

12. عمار الصغير,التفكير العلمي عند بن خلدون ,الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ,الجزائر , د –ت , ص 44.

13. صلاح الدين بسيوني رسلان ,السياسة والاقتصاد عند بن خلدون ,الشركة الوطنية للنشر والتوزيع , الجزائر , 1999 , ص 41 .

14.عبد الرحمن بن خلدون , مرجع سابق , ص 210.

15. محمد عابد الجابري,فكر بن خلدون –العصبية والدولة –دار الطباعة ,بيروت ,لبنان , 1992 , ص 173.

16.مرجع سابق , ص 128

17.عمار الصغير ,مرجع سابق , ص47

18. جورجلابيكا ,السياسة والدين عند بن خلدون ,ترجمة موسى وهبي ,دار الفارابي ,بيروت ,لبنان , 1980 , ص 98.

19. ساطع الحصري ,دراسات عن مقدمة بن خلدون ,مكتبة الخانجي , القاهرة , مصر, 1961 , ص 347 .

20.طه حسين , مرجع سابق , ص98.

21. مصطفى غالب,في سبيل موسوعة فلسفية ,ابن خلدون ,دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر ,بيروت ,لبنان , 1995 , ص 84.

22.بن خلدون , مرجع سابق , ص 493

23. يوسف فرحات,الفلسفة الإسلامية واعلامها ,الشركة الشرقية للمطبوعات ,مصر, 1986 , ص 288.

24.صلاح الدين بسيوني , مرجع سابق , ص 67.

25.ناصيف رسلان ,الفكر الخلدوني , الفكر الواقعي عند بن خلدون ,دار الطليعة , ط2 , بيروت , لبنان , 1984 , ص 272.

26. عزيز العظمة ,بن خلدون وتاريخه ,ترجمة عبد الكريم ناصيف ,دار الطليعة للنشر , بيروت ,لبنان , 1981 , ص 120.

27. مصطفى الشكعة,أسس النظم الإسلامية في الفكر الخلدوني ,الدار اللبنانية المصرية ,بيروت , لبنان , 1988 , ص 88 .

28.ادريس خضير , مرجع سابق , ص 145.